سلطاناً اعظم من غيرهم كما بيَّنا سابقاً

ثم شاع في القرن الخامس اسم «رئيس الاساقفة» او «ارخيفسقوس» (ἀρχιεπίσκοπος) واستُعمل بمعنى المتروبوليت والمطران

ومن الاسماء التي وردت في اواخر القرن الرابع اسم الاكسرخس (ἔξαρχος) ومعناهُ القائد والزعيم وأُطلق ايضاً على اصحاب الكراسيّ العظمى كالمتروبوليت ورئيس الاساقفة

ثم جعل الكتبة يفرزون شيئاً فشيئاً بين هذه الرُّتب كلها فاختصُّوا الحبر الرومانيّ باسم البابا ومعناهُ ابو الآباء. ثم دعوا بطريركاً صاحبي كرسي الاسكندريَّة وانطاكية لانهما ينتميان الى بطرس ولخطارة مقامهما المدنيَّة. وأُطلق من بعدهِ على صاحب كرسي القدس الشريف لمآثر النصرانية في اورشليم وانتسابها الى الرسل. ثم أُجري هذا الاسم على صاحب كرسيّ القسطنطينيَّة بعد ان صارت مركز المملكة الرومانيَّة وان لم يكن هذا الكرسي من الكراسي الرسوليَّة

وجعلوا رتبة الاكسرخس فوق رتبة المتروبوليت. واعتبروا رئيس الاساقفة والمتروبوليت في درجة واحدة

هذه نبذة اولى رويناً فيها ما يختصّ باصل المقام البطريركي وقدم اسمهِ. وفي مقالة اخرى ان شاء الله نلخص تأريخ انشاء البطريركيَّات وتعدُّدها مع بيان حقوق البطاركة وامتيازاتهم التي منحتهم اياها الكنيسة (ستأتي البقية)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢ ما تستفيد سوريَّة من لبنان

بعد تعريفنا لِلُبنان وتطبيق اسمهِ مع اقوال المؤرخين لا نرى بدًّا من استلفات النظر الى فوائد هذا الجبل من حيث طورهِ الطبيعي

على أنّنا قد اشرنا الى هذا الامر في مقالاتنا السابقة (المشرق ٢: ١٠٢٦) واثبتنا انّ لبنان بالنسبة الى سوريّة كالنيل بنسبتهِ الى مصر اذ انهُ كحوض عظيم تتفجّر منهُ المياه التي تسقي النواحي المجاورة اما على هيئة الامطار واما بطريقة المجاري المائيّة او بتكاثف الابخرة وسقوطها على صورة الندى. ولولا هذا الجبل لاضحت سوريّة اشبه بادية جرداء او رملة صلعاء تابعة لمفاوز جزيرة العرب التي هي متّصلة بها من جهتها الجنوبيّة الشرقيّة

وممّا سبق لنا ايضاً في وصف لبنان أنّنا قابلنا بين هذا الجبل المنيف وجبل الالب (المشرق ١: ٧٢١) فبيّنا ما خصّ بهِ الله الطود السوريّ من المناظر الجميلة والمرافق العديدة فترى فيهِ الرُّبى المكلّلة بالغابات والغياض الزاهية بضروب الاشجار والنبات والاودية العليلة النسيم ذات الظل الظليل مع جداول مترقرقة وسيول جاحفة وشلّالات مزبدة وبحيرات كالمرايا الصقيلة الى غير ذلك من المحاسن الطبيعيّة التي زيّن بها الخالق تلك المشارف الزهيّة التي اطنب الانبياء في اوصافها وعدّدوا في الاسفار الكريمة معانيها والطافها

على انّ لبنان يُورث سوريّة غير هذه المنافع ممّا يستلفت نظر ذوي العبرة. ولو تحرّينا تعدادها لكتبنا فصلاً رائقاً جديرًا بان يُنظَم في سلك فلسفة الجغرافيّة من شأنهِ ان يوسّع نطاق اهل الرويّة ويبيّن لهم عجائب الكون

وهذه الفوائد الجمّة التي تستفيدها سوريّة من لبنان على اربعة اصناف منها هدروغرافيّة وجيولوجيّة ومنها نباتيّة ومنها جويّة ومنها ما يرجع الى الامزجة والاجسام

*

١ لا حاجة ان نسترسل في الكلام عمّا يجدي لبنانُ القطر السوريّ من المنافع الهدروغرافية اذ أنّنا وصفنا سابقاً ما يختص بمجاري المياه في لبنان (المشرق ٢: ١٠٢٦) وغاية ما نقولهُ هنا أنّنا لم نُغالِ في وصفنا المذكور وكفانا لتأييد مقالنا ان اكبر انهار سوريّة وهو العاصي ينبجس من لبنان فيجري الى شمالي سورية ويخصب نواحيهُ. وذلك ما حمل القدماء على انشاء مدن عظيمة في تلك الجهات كحمص وحماة وانطاكية ولولا هذا النهر لاصبح وادي العاصي قفرًا مقفرًا لا يأوي اليهِ سوى

قوم من عرب البادية . وهو بهِ جنَّةٌ غنَّاء يتقلَّب فيها الوفٌ وربوات من البشر في خصب دائم وعيش رفيه

وما قلناهُ عن وادي العاصي يصحُّ ايضاً في سهل البقاع وفي ساحل البحر من طرابلس الى صور فان هذه البطائح معروفة اليوم بوفرة خيراتها وريع مآتيها ونضارة حدائقها وإن ذلك الَّا من فضل لبنان الذي يرسل اليها مياه ينابيعهِ النميرة مع دسم تربتهِ التي تنحدر مع السيول وترسب في قاع الارض فتُخصبها وتسمِّنها

ونزيد على ذلك انَّ التربة التي جرفتها المياه من مشارف لبنان هي التي صارت اليوم بطحاء فسيحة الارجاء زاهية الزروع تمتدُّ من طرابلس الى مصبِّ النهر الكبير ولولا انَّ مجاري المياه تسحو هذا الطين اللزج من معاطف الجبل لكان هذا السهل جوًّا تغمرهُ مياه البحر كما ترى في جهات اخرى . لانهُ من النواميس الثابتة تمام الموازاة والمقابلة بين السلسلة اللبنانية والشواطئ البحريَّة اي انَّ لبنان كلَّما امتدَّ نحو البحر كان رأساً داخلاً في المياه واذا اندحر استبطنتهُ المياه فصارت في بطنهِ خليجاً . امَّا هذه نواحي طرابلس فانَّ انهار لبنان وجبل عكار كابي علي والنهر البارد ونهر عكَّار وعلى الاخصِّ النهر الكبير انحدرت اليها وملأت بالتربة التي سفتها الجونَ الذي كان هناك وهو يُعرف حتى اليوم بجونِ عكَّار دلالةً على اصلهِ لكنهُ في الوقت الحاضر خَبُث منفسح ذو نعومةٍ وخصب

٢ وليس لبنان اقلَّ فائدة من حيث الملك النباتيِّ . فان ارباب الطبيعة يقضون العجب من سوريَّة لما فيها من اصناف النبات وضروب الاشجار . فانَّها تجمع بين نبات الاصقاع الشماليَّة ونبات الاقاليم المفرطة الحرارة في اواسط افريقية . والنباتيُّ اذا تفرَّع لبنان وجد في اعاليهِ اعشاب الصرود التي لا تُرى الَّا في شمالي اوربَّة وقمم الالب . امَّا حشائش البلاد الحارَّة فهي ناميةٌ في سفح لبنان عند وطإ بحيرة الحولة وهناك من نبات البرديِّ الذي لا يُرى اليوم الَّا في اواسط افريقية عند البلاد المجاورة لينابيع النيل . والى لبنان يعود الفضل من هذا القبيل لما يوجد من الاختلاف بين برد رأسهِ المحلَّق في العنان المعتمِّ بالثلوج وحرارة حضيضهِ البارز لانوار الشمس واشعَّتها الحامية فيسوغ للنباتي في سوريَّة ان يجمع في بضع ساعات من اشكال الاعشاب ما لا يجدهُ في غيرها الَّا بعد مشقَّة النفس والعناء الطويل

وهذا التباين العظيم بين نبات بلاد مختلفة لا يروق فقط عين الناظر اذ يرى الاشجار الجبليَّة كالسنديان والارز والاشجار الصحراويَّة كالنخل والبردي لكنهُ ايضاً يجدي الزارع نفعاً حيث يمكنهُ ان يستغني عن كثير من محصولات البلاد الاجنبيَّة. كيف لا وهو يجد في وطنهِ تربةً ملائمة لاصناف المزروعات والاشجار المثمرة وضروب الاخشاب وفي كلّ ذلك ايرادات طيّبة توفّر اسباب الغنى وتفتح ابواب الرزق لطالبيهِ. فيا ليت شعري كيف يسوغ لنا ان نتشكّى من فقر بلادنا وقحطها وفيها كل ما يلزم ليغني شعوبًا جمَّة. ولو شاء اصحاب الثروة لرأوا انّ هذه البلاد يدرُّ منها اللبن والعسل كما في ايّام بني اسرائيل لا ينقصها لذلك الّا رجال جدّ واقدام ممَّن لا يستنكفون من العمل ولا تثني عزائمهم المصاعب. فلا يمرّ على بلادنا ثلاثون سنة حتى يصير لبنان اغنى من بلاد نزوح بغاباتهِ وتسمي السهول الساحليَّة اشبه ببطائح الهند وخطّ الاستواء

٣ وان انتقلنا الآن من ذكر النبات الى وصف الهواء إذن لوجدنا انّ حظّ اهل سوريَّة لأسعد من سواهم لوقوع لبنان وسط بلادهم. وذلك ممَّا لحظهُ الكاتب الشهير ڤولناي (Volney) في اواخر القرن الثامن عشر قال: «انّ بلاد الشام تجمع تحت سماء واحدة احوالًا جوّيَّة مختلفة وتدّخر في اقطارٍ ضيّقة الارجاء ملذّاتٍ لا تُرى في غيرها من البلاد الّا متفرقةً على مسافات قاصية. ففي غيرها من الاصقاع ترى فصول السنة تفصلها الشهور واماً سوريَّة فيصدق القول فيها انّ فصول سنتها لا تقسم بينها الّا بضع ساعات فقط. فان اثقلك توقّد الحرّ في صيداء او طرابلس ايّام القيظ فما لك الّا ان تمشي نحو ستّ ساعات فتجد في الجبال المجاورة هواء لطيفًا كهواء شهر اذار (١»

فهذا الاختلاف في درجات حرارة الجوّ الذي تغبطنا بسببهِ البلاد المجاورة للشام كبلاد الجزيرة ومصر انّما اصابهُ القطر الشامي بواسطة لبنان ليس بامتداد عرضهِ الذي يبلغ نحو تسع درجات. ولا لاجل طولهِ البالغ ١١٠٠ كيلومتر بل لاجل ارتفاعهِ فوق سطح البحر. ولولا علوّ جبالهِ لما كان فرقٌ يُذكر بين شمالي سوريَّة وجنوبها فانّنا نرى انّ حالة الجوّ في غزّة لا تختلف كثيرًا عن حالتهِ في الاسكندرونة وانّ الحرّ في دمشق كما هو في حلب. لكنّ الفرق العظيم انّما هو بين السواحل ومشارف لبنان بحيث نجد في الجرد لطف هواء الاصقاع الشماليَّة

١) راجع رحلتهُ الى مصر وسوريَّة (ج ١ ص ٢٨١)

ومما يساعد ايضاً على تكييف الجوّ وتلطيف لهوات الحرّ هيئاتُ تركيب لبنان المختلفة واوديتهُ ووجهة تقاطيعهِ فان الارواح بهبوبها في بطون الارض وشجونها تغيّر احوال الهواء كما تؤثر في السُّحب والامطار التي تحملها الرياح. وترى بخلاف ذلك بعض مُنعطفات لبنان لحسن موقعها مصونةً من رياح الجنوب والشمال تنحدر الى البحر انحدارًا لينًا وهي امكنةٌ تهنأُ فيها العيشة للطف نسيمها وتشبه جنوبيَّ فرنسة برطوبة هوائها

ولا عجب اذا لبنان اضحى بعد زمن قليل كمستشفى الاعلاّء يتقاطرون اليهِ لعلاج ادوائهم كما يهرع اليهِ المصيفون لينجوا فيهِ من وقدات القيظ ويستبدلوا روائح المدن المستكرهة بالريح الطيّبة. امّا الشتاء فيجد ذوو العاهات امكنةً في لحف لبنان يدفعون فيها بردهُ القارس ويقضون فصلهُ في مأمن من اذاهُ اذ يحميها لبنان من نفح الرياح وشدَّة العواصف وهي تقوم لاهل بلادنا مقام مدينتي « نيس » و« كان » وسواحل فرنسة الجنوبيَّة التي يزدحم فيها شتاء الاوربيُّون والاميركيُّون فرارًا من صبارَّة القرّ. فيا ليت شعري أليس خور جونية وما يُحدق بهِ من المزارع مقاماً شتويًّا يضاهي خَوْر نابولي. ألا ترى كيف ان ريفهُ العجيب بارز لاشعَّة الشمس ولصفاء هواء البحر المُنعش وهو مع ذلك في حمىً من السموم والريح الشماليَّة. فلو شاء اصحاب الامر لجعلوا جونية محطًّا لذي الامزجة النحيفة ومنزلًا للناقهين. وهذه البلدة تفضل من وجوهٍ عديدة وادي النيل وضفَّتيهِ حيث المناظر قليلة والهواء يتقلَّب تقلُّبًا كبيرًا فيلي النهارَ المتوهّج الحرّ زمهريرُ الليل وصردهُ. امّا في مواطنُ لبنان فترى للآفاق محاسن متجدّدة من جبال شاهقة وبحار زاخرة وهواء رطبٍ قليل الاختلاف. وهي لعمري منافع كبرى لا تخفى طويلًا على ذوي الخبرة

ولعلَّ منتقدًا يعترض علينا بقولهِ انَّ منعطف لبنان الغربيّ كثير الرطوبة لتكاثف الابخرة المتصاعدة من البحر في جوانبهِ. والرطوبة كما هو معلوم لا توافق مزاج كثيرين من الناس الذين يؤثرون على المقامات الرطبة الهواء المنازلَ اليابسة

أجل ولكن لا يخلو لبنان من منافع المراكز اليابسة ايضاً وذلك في منعطفهِ الشرقيّ فاذا تسنَّمت اعالي هذا الجبل لا تلبث ان تبلغ بعد ساعات قلائل الى نواحٍ جافَّة الهواء لا يشوب سماءها غيمٌ ولا يقرب منها ندى البحر لتوسّط لبنان بينها و بينهُ

فانَّ لبنان يقسم بلاد الشام من حيث الهواء قسمين مختلفين احدهما ساحليّ نديّ الجوّ لين النسيم معتدل الهواء دون حرّ محتدم ولا برد شديد. والآخر شرقيّ بريّ تختلف فيه الانواء وتتوالى الفصول المتباينة وهو يجدي بعض الامزجة قوّة وصلابةً. وعلى كل حال مهما افتى الناس في تفضيل الهواء اليابس او الرطب فان العناية الصمدانيَّة لم تحرم لبناننا من خواصّ الهوائين فيختار كلٌّ منهما ما يشاء

٤ ولهذا الاختلاف في احوال الهواء نفعٌ آخر وهو تأثيرهُ في بنية الجسم

وغنيٌّ عن البيان انَّ طريقة العيش في زماننا وكثرة الالتباك بالاشغال ومداولة الامور والتهافت الى رَشْف إناء الملذّات كلُّ ذلك ممَّا يضعف بنية الناس ويفقر الدم ويحطُّ بالنسل. وهذه المضرَّات في الاقطار الحارّة الكثيرة الرطوبة كما ترى في مدننا الساحليَّة اوفرُ منها في سواها من البلاد لازدحام النـاس في البيوت الضيّقة ولتراكم الاقذار في الاسواق وقلَّـة تغيير الهواء. فاذا بقي اهل المدن على ذلك زمناً قليلًا فسد لا محالة دمهم ونضب ماء حياتهم لولا انَّ اهل لبنـان يهاجرون الى السواحل فيأتون بدمٍ جديد يسري في عروق الجمهور فينعش اجسامهم ويشدّد قواهم. وكما انَّ هؤلاء القادمين من مشارف لبنان يؤتون اهل الحضر دماً جديدًا كذلك الاهلون اذا ما قضوا شهورًا من سنتهم في فصل الصيف فوق ربى لبنـان تجدَّدت عزائمهم وتقوَّت أعصابهم فيعودون الى ديارهم وثيقي الاركان مضبوري الخَلْق تتـدفّق منهم مناهل الحياة

هذه بعض ملاحظات ابديناها لنفيد مواطنينا عن فوائد لبنان من حيث مقامهِ الطبيعيّ. فلا ريب انهُ لو فُقد لتلفت ايضاً معـهُ اكثر ارفاق بلادنا وقفرت المواطن واصبحت التربة عقيمةً خاويةً لا تأتي بغلاَّتها فكانت اشبه بغيافٍ جرداء لا يُرى فيها سوى بعض تلال من الرمل خلوة من النبات لا ماء يجري فيها ولا انهار ترويهـا يسكنها قوم من صعاليك البادية يتنقَّلون فيها لطلب كلأ الربيع ثمَّ يرحلون عنها. ويوجيز القول انَّ بلاد الشام لولا لبنـان كانت كالبوادي التي تجاورها من جزيرة العرب ونواحي تدمر واقفـار ما بين النهرين في جنوبيّ حرَّان ونصيبين

(ستأتي البقيَّة)